وحيدٌ بين الصقيعِ والفراغِ

الكاتب
جمال بن عبد الله الحيان

رواية

رواية

وحيدٌ بين الصقيعِ والفراغِ

صرت تحت جنادل الخزي والعار ،
فكم تظاهرت بالبله والجمود من أجل
توفير الدواء ، وكم كابدت هي من
الألم وعانت من الجزع ، فما احتواها
مضجع ولا التقى لها جفن

جمال بن عبد الله

رقم الإيداع القانوني

2020MO0944

الترقيم الدولي

0-286-39-9920-978

إهداء

أو بالأحرى عزاء ...

مقدمة

إنّ السعادة في يقظة الضّمير ، به نتذوّقُ حلاوة الصّبر ونتجرّع مرارة الخطأ ، ونغسل حوبات ماضينا الكئيب ، ونستخذي للواقع المرّ ، فعلى مقربة من فراش آلامها، ساورتني المخاوف وفاعتني الأوهام من أن أفقدها إلى الأبد، صرتُ تحت جنادل الخزي والعار ، فكم تظاهرت بالبله والجمود من أجل توفير الدواء ، وكم كابدت هي من الألم وعانت من الجزع ، فما احتواها مضجع ولا التقى لها جفن بجفن ، كم أذللت نفسي أمام ربّ العمل ، وكم أهنت كرامتي من أجل طلب الترياق ، ونظرات من الدائنين تكاد تخرق شفاف قلبي ، ولم أستطع التحمل ، بل اعتراني اليأس وسألت الله الفرج ، فلم أجني

من هذا العذاب سوى الحيرة والمضض ، إلى أن انطفأ سراج حياتها إلى الأبد .

أصبح الكون كله من دون أي ألوان ، من دون ملامح ... من دون أصوات ، لم يعد سوى صدى صوتك يرن في أذني ، لم أعد أرى سوى صورة وجهك الحبيب ، لم أعد أتذكر إلّا صورة وجهك ونظرات عينيك عند الوداع.

فكل الأمم بنسيانها الله ، فقد وقّعت وأمضت وثيقة المُضي قدما نحو الأفول .

رغم حماستي القوية ، وعنفي الشديد ، وزوجتي التي ترقد في الفراش ، فتمعن في المرض يوما بعد يوم ، رغم أنها عصبية بشكل هستيري ، إلا أنها بارعة الجمال ، متسلطة الطباع في آن واحد ، امرأة ملداء ، شديدة الحماس ، طيبة شهمة ...رغم ذلك كله إلا أني قد هرمت بالمحن كما أضناها المرض .

كانت فتاة في غضارة الصبا ، تشع بهاءا ، وتفيض نشاطا وحركة ، وتتقد إقبالا على الحياة ، فكان للأقدار رأي آخر، فقد صعقها الحزن والألم ، فصارت امرأة ممن تفاقم مرضها ، واشتدت غيرتها عليّ لجمالها الذي بدأ يذبل ، واهتمامي الذي بدأ يفتر ، احتد هيجانها بين مد وجزر ، وقد طفحت نفسي ندامة عن كل عتاب عاتبتها به ، وحسرة عن كل نقاش حاد دار بيني وبينها، وعذاب الضمير لا يقبل شفاعة أحد ولا نذرا بعتبة ضريح .

أقبع وحيدا على شرفة الشقة وبجواري الصقيع والفراغ ، انقلبت حياتنا رأسا على عقب ، صرت وحيدا مبدد الأحلام ، مشرد العواطف، فزوجتي تذبل بالسرطان وسراج حياتها اقترب من الإنطفاء ، تقلبات مروعة تحيط بالحياة ، بمزاجها القاتم ، وعنوانها الكئيب الحزين ، فمرض الحبيب يهدم قلبي كل يوم تهديما .

تصيح في لياليها من شدة الوجع ، من المصل الذي يسري في العروق ويقطع الشرايين ، تصيح فيما يشبه الهذيان من شدة

المعاناة ، يترقرق في أعماق الروح الظمأى أمل الشفاء وأمل الحصول على الدواء ، مبلغ خيالي لم أحلم حتى باحتضانه ولو مرة، فأنا بائس أمّيّ ، وقد يكون ذلك من آمال الصفوة المثقفة الغنية .

إنها الدموع تترقرق في عينيّ مرة أخرى ، كلما علمت واستيقنت أن القدر قد انتصر علي ، لم ينفعني الصبر ولا كلام الشجعان ...فهو المال يا ابن عمي ...هو الحكم والمفصل .

تحملت بين أروقة المستشفى العسكري عناءا كبيرا ، وقد بذلت جهدا مضنيا ، فقدت فيه عملي ومصدر رزقي ، تغير كل شيء ...

من ذا الذي خمّن أني سأصير إلى أرازل القوم !!

من ذا الذي ظن أن صاحب هذه النفس الطافحة بالآمال ، الفياضة بالمشاعر ، ستنطفئ أحاسيسه الجميلة الوقادة ذات يوم .

شعرت أن منيتها قد اقتربت ، وأن الجميلة فيروز سترحل عما قريب ...فقد هوت إلى اليأس فالموت .

عندما يقترحون عليك عدة

علاجات لمرض، فهذا يعني أنه

لا يمكن علاجه"

أنطون تشيخوف

أجيرٌ مستعبدٌ

ولسوف يطوي النسيان هذا كله ، ولسوف يجتثه ذات يوم، فتلك مشاهد لا تنسى ، وبدل أن تطوى تروى ، مشهد مؤثر للحبيب على فراش الموت يكوي النفس حزنا ، فيأخذ قلبي يخفق في صدري سريعا ...سريعا ....أيتها العنيدة الصغيرة ، أتتركينني وحيد ، أتتركينني وأنا لا أعرف حتى كيف أرتب الأواني في المطبخ ، أتتركينني أتعذب مرات ومرات ... وما كان أشد أسفي يا حبيبتي من اندثار صوتك الجميل من أرجاء البيت إلى الأبد ، وإنه ليحزن قلبي حين تتواهق عليه هاته الأفكار المليئة بالهموم والأوجاع ، لقد رأيتك في خيالي تعاتبينني على تأخري ، ورأيتك في مكان آخر تحلقين فوق سمائنا المليئة بالنجوم ...سبحان مقلب القلوب ومدبر الأمور ،

بالأمس كنت بصحة جيدة وبوجه مشرق ، بمزاج حسن وسمت خجول ، كان الهواء حين صحتك مفعما بأشذاء الربيع ، فرسمت على وجهك قسمات رقيقة لها معاني مفعمة بالحنان .

عذابي ....

خيالي الواسع ....

وإن الدموع لعاجزة عن دفع الشقاء ...للأسف .

فكل مرض معروف السبب موجود الشفاء ، وكثيرا ما سألت نفسي: إن كان الحال هكذا ، فما لي إذن لو أجد الترياق ولم أقع على منبع ومصدر الدواء ، صرت مخيرا بين أمرين : الموت أو العيش على هذه الحال ، لقد يئست من التسول والتذلل ، فإن أخطر ما في الأمر، بغض النظر عن هاته الجميلة التي تئن على السرير ، هو الإنصات الشديد لما يحدث ...ليس الألم .

قد يكون المرض مجلبة للإهتمام ، فالمرض لا يمحو الحب بل يزيده، لقد أصبحت إنسانا بائسا بين بلاء الفاقة ومرض الحبيب ، أصبحت وحيدا ، أتعمق في داخلي ، أحس باللامبالاة ...نعم ...ليسوا كلهم بفاسدين ، ولكنك تضطر لتصفهم بذلك .

تتعدد معاناة مرضى السرطان ، لكنها تتوحد في كون العلاج أصبح معضلة لا تقل عن الشعور بالألم ، واقع وإن حاول البعض التوعية به والسهر على تغييره ، إلا أن دموع ذات قلة اليد مازالت تكشف معاناة المرضى وشكواهم ، فمعاناتهم تزداد بسبب تكاليف العلاج الباهضة، رتبت لي المواعيد كل شهر ، وقد بلغت تكلفة العلاج اثني عشر ألف درهم (12000) للحصة الواحدة وكان قدري أن أتذوق تلك المرارة، مبلغ خيالي بالنسبة لي ، لم أحلم قط بجمعه وضمه ، فكيف بتسديده كفاتورة عند كل حصة تداوي.

أعمل مياوما بإحدى محلات بيع الأثاث والقطع الأثرية بدرب عمر بمدينة الدار البيضاء ، عند الحاج لمين الفاسي على مقربة من قيسارية البركة قرب محل اليهودي موشي صاحب الفخار .

ومن لا يعرف الحاج !!

صاحب الثقافة الواسعة إلى أقصى حدود السعة ، وقد تقاطر لمحله الناس زرافات ووحدانا ، حتى أصبح محله معروفا لدى أرباب سيارات الأجرة ، تمر بجانب المحل فتسمع موسيقى الملحون تصدح من مكتبه الصغير في الزاوية على يسار تلك السيوف العربية الأصيلة ، في كل صباح ترى أنواعا وأصنافا وأجناسا مختلفة من البشر بتلك الوجوه الباسمة والقدود المائسة ، كان جميل الصورة ، ربع القامة رشيقها ، وكان وجهه مقطبا عبوسا تلوح عليه ملامح الكآبة لشحّه المفرط ، لا يتقن شيئا مع عماله سوى التقريع ، ومع زبائنه كالكلب يتملق وينافق ، وإياك أن تنظر إليه وهو يخاطبهم بتذلل !!

ستسبّ وتشتم ، وقد تطرد !!

يظل يتبختر طوال النهار وهو يغير أنواع خطاباته ولغاته ، كان متقنا صراحة ... يتبول في قوارير المياه بالدهليز الطويل في الطابق السفلي للمحل ، شديد العتمة والظلمة ، كثير الوساخة والقذارة ، عفنٌ في سريرته ، ومن النخبة في علنه .

اعتاد الحاج الفاسي تدخين المالبورو على نغمات الملحون كل صباح وكنسي للمحل ، بلباسه القديم الطراز، الشبيه كثيرا بلباس الملك الراحل الحسن الثاني ، كان أشيب الرأس ، أبيض البشرة ، حزام سرواله قد شده على بطنه كعادة أهل فاس ، متقن للغات عديدة .

فتلك القطع الأثرية لتستهوي أصحاب المال من كل حدب وصوب ، وكان دوري الإعتناء بنظافة المحل وتوجيه الزبائن لا غير ، مع اثنين من ذوي الخبرة ، حسن من مدينة أكادير ، وكان عصبيا بشكل كبير ، أنانيا من أوجه مختلفة ، كان يهوى الموسيقى الأمازيغية ، أصلع أنيق .

والثاني عبد الرحمن من تيزنيت ، كان متملقا للحاج بشكل كبير جدّا ، حتى إني كدت أجزم أن الأمر غير طبيعي أبدا، وكان عبد الرحمن هو

الذي يخرج قوارير البول إلى القمامة ، وكان الكل يسخر منه لهذا السبب .

يبتدئ دوامي من الساعة الثامنة صباحا حتى الخامسة مساءا ، كانت حياةً شديدة العزلة ، كثيرة الهدوء ، فهذا راتبي قد طار سريعا وانتهاء الأسبوع .. .كنت أعيش كل بداية أسبوع في بحار الهواجس واستحضار المسؤوليات والمصاريف التي تزداد كل شهر ، ما اضطر زوجتي فيروز للنزول والبحث عن عمل .

تتقلب تلك الأيام بين نشاط وعصبية ، وفرح وحزن ، كالحياة في كنهها الحقيقي لا برؤيتها الخيالية .

أستيقظ على أهازيج زوجتي في المطبخ تعد وجبة الفطور، فقد اكتريت شقة بأحد أحياء الحي الحسني الفقيرة وبالضبط كاريان سيدي الخضير، بسومة كراء قدرها ألفي درهم (2000) ، لي ثلاثة أبناء ، كوثر ذات الثمان سنوات ، وقيصر ذو الأربع سنوات ، وهاجر ذات السنتين ...

روتين يومي متشابه ، ما عدا يوم الأحد الذي هو يوم راحة ، أظل مستلقيا على تلك الكراسي بمقهى فلسطين على شارع أفغانستان ، وهوايتي (الحروف المتقاطعة) ، وعلى نغمات موسيقى أم كلثوم ونفثات الوينستون ، أستمتع بهدير المحركات وملامح الناس الغرباء الذين غصت بهم طرقات المدينة ، وتلك الفتيات الجميلات ، هكذا أقضي يوم إجازتي ، وغدا يوم عمل جديد .

زوجتي فيروز ، خياطة بقيسارية الأمل على مقربة من العمارة التي تقطن بها ، تعمل مياومة كذلك ، وقد أتقنت فن الطرز فصارت الخياطة مصدرا محترما للرزق ، نتعاون به على مطبات الزمن وغوائل الأيام العجاف .

هي الدار البيضاء ، الكل يعمل والكل يشقى ويدخن ، الكل يحب ، وأفتخر بنفسي كوني ابن حضارة كازا بلانكا .

في يوم السبت 18دجنبر 1999 ، وأنا أعمل داخل المحل ، أرتب بعض الأواني الخزفية الصينية الصنع ، وأمسح على تماثيل لبوذا الفيلسوف ، تلقيت اتصالا من صاحب محل البقالة بقرب محل سكناي .

ألو : نعم اسي ابراهيم

الوا : السي زهير ...زوجتك قد أغمي عليها ، وأبناؤك بمعية أبنائي في المنزل ...المهم ...لقد تم نقلها للمستشفى العسكري ، أسرع والحق بها، وقف على أطوار علاجها ، فأنت تعرف مستشفياتنا...دهن السير إسير .

زهير : فهّمني أسي إبراهيم ، ما الذي وقع بالضبط .

إبراهيم : لقد أغمي عليها في محل الخياطة وزميلاتها هن من قمن بالإتصال بسيارة الإسعاف ، ولا وقت لتضيعه الآن .

زهير : غنمشي دابا ....شكرا السي إبراهيم .

هززت رأسي في تفهّم ، ورمقت الحاج بنظرة متفحّصة ، وازدردت ريقا مرّا قد علق بحلقي .

أخاطب نفسي :

أأنتظر حال إتمامي العمل ، لم يتبقّ سوى ثلاث ساعات ، لا أظن أن الحاج سيتركني أذهب ، فاليوم مليئ بالأشغال ، وحتى السوق في رواج اليومَ قلّ نظيره هذا الأسبوع ، ولا أظن أنه سيسمح لي بإفساد يومه هذا ...ياه ...سأخبره ...وليكن !!

ما هذا الحظ العاثر ...أنا إنسان بائس .

ناديت الحاج وقد رسمت على شفتيّ ابتسامة مطمئنة أخبره بما جرى .

فأجابني وقد كادت تنقشع ظلمة الغضب والغل عن وجهه ، بعدم الإكثرات ، وهز كتفيه بأسلوب اللامبالاة وانصرف تجاه زبائن من دولة الأردن ، انفعلت وبدأت أرتعد بشكل هستيري ، فصحت به : عطيني رزقي لديلمك ، نمشي فحالي !!

نظر إلي بعين المستطلع ، وقد ذهل وامتقع لونه ، وانتفخت أوداجه كثعبان يريد أن ينقض ؛ ببرودة أعطاني مالي ، وانصرفت مهرولا تجاه المستشفى العسكري ، وكلّي سخط ...أسب وأشتم .

هذه هي حقيقة الأجير المسكين ، مستعبد لدى الكلاب ...

اتجهت صوب محطة الحافلات ، وفي الوقت الذي كنت فيه مهرولا مارّا من قرب المحلات المجاورة للمطعم الصيني ، ناداني سيسو اليهودي وهو ابن موشي صاحب الفخار ، وهو يشاهد مباراة الديربي البيضاوي، ناداني كي أشاركه فرحة فوز فريقه الوداد ، فأجبته أني في عجالة من أمري وأن الأمر طارئ .

نظر إلي وقد انقبضت أسارير وجهه و خامره الإضطراب : مممممم غرض مهم!!

جميلة هي أم قبيحة ، قل ...قصيرة أم طويلة ...مممم

لن أخبر فيروز ...بحق موسى ...

بوجهٍ ممتقع حزين : نسيت أن تقول أهي سوداء أم بيضاء ، أهي مسلمة أم يهودية ...أووووف ....يا سيسو ، لست في مزاج لهذا كلّه...أنا ذاهب ...بالسلامة .

تنهّد تنهّدا خفيّا فقال : أخبرني إذا !!

قلت : فيروز في المستشفى والأمر خطير على ما أظن .

منذ مدة صارت زوجتي صاحبة هواجس وهذيان ، أثرت فيها الحمّى وألمٌ في البطن صاحبها في هذه السنين الأربعة الأخيرة ، وإن بي لظمأ محرقا كي تستعيد عافيتها فلم نترك بابا إلا وطرقناه آنذاك...كانت قلقة متطيرة ، تضنيها الهواجس ويرهقها هم الأطفال الصغار ، وفؤول الشؤم قد استحوذت على عقلها الضعيف .

سيسو : انتظر ...سأصطحبك ، فاليوم راحة لنا نحن اليهود ، ولعل هذا الديربي المجنون لأنساني عظم يومنا هذا ، وإنّ غدا لناظره قريب، فلا تبتئس ولا تجزع ...

فرحت لذلك المعروف ، وانشرح صدري له ، وبدأت عيناي تتفحصان المحل كأنهما تريانه لأول مرة ، أتفحص تلك القوارير القديمة المكسرة، وكرسي موشي بقربها ، وعلبة من الأدوات ولصاق على منضدة قرب الستائر المغبرّة ، أنظر لتلك اللوحات المنقوشة على جدران المحل .

ومن هم أصحاب القبعات السوداء يا ترى !!

أجاب سيسو : هم أجدادي يا زهير ...أجدادنا الأكابر ، ورثناها كابرا عن كابر ...

ولما تخلصت من ترددي وارتباكي ، بدأ لعابي يسيل ، يسح على ثيابي، فاغرا فمي ، ساهيا ، متأملا بين البحث عن عمل ومستجد مرض الزوجة .

انطلقنا بتلك السيارة العريقة الكريهة الرائحة ، على نغمات الأغاني الوطنية العبرية .

القلب يخفق واليد ترتعش ، وصدى أخبار فيروز ينذر بالشؤم ، فبعد وصولنا ، لم أتكبد عناء البحث عن أحد ، أو سؤال أي كان من الممرضين والحراس ، اكتفيت بمكالمة سيسو المزعجة لبعض المسؤولين ، وكيف استقبلنا المدير بكل فرح .

أبرقت أسرة وجهي بفأل الخير مع اليهودي ، وقد كنت متشائما لحد كبير ، فتلك المستشفيات لتحتاج النفقات الباهضة ، وأنا في ذروة الفاقة والحزن ، فدعونا من الأحلام الوردية ، وموتوا موتة شريفة في بيوتكم الخربة بين أحضان أبنائكم وعوائلكم ، لا موتة بين القطط وفي غرف مسيّجة النوافذ محكمة الإغلاق .

التفت إلي سيسو يقول : لا بد أنك متضايق نوعا ما !!

أجبت : قليلا ...أمر عادي .

ألتفت إلى الناس بالمستشفى ، ولم أر إلا عالما مليئا بالآلام المبرحة والعذاب الشديد ، ليس لديّ ما يكفي من الدموع ...لكنت قد وزعتها

عليهم كلهم كي يطفئوا تلك النار المتأججة في قلوبهم ، من قهر الوطن وظلم الحياة ...أستغفر الله ...أستغفر الله ...أستغفر الله ...

زعزعت أصيص الأزهار من على مكتب مدير المستشفى بكل توتر وخروج عن السيطرة ...

أخبرني الطبيب أن حالة فيروز مستقرة وأن لا شيء يدعوا للقلق.

فقال : قد تكون هناك فحوصات أخرى ، وسيكون ردي الأخير غدا وتقريري المعتمد كذلك .

أخاطب نفسي :

لن تصل إلى إخفاء الحقيقة عنّي ...الأمر خطير .

كيف!!

أتظنوني أبلها ...كل جناح واختصاصاته، ولا أثر لزوجتي ، ولم يبق سوى مكان واحد ...المكان المخصص لمرضى السرطان ...أحقّا تخميني صحيح ، أم أنها رؤوس الشياطين وهواجس المخبولين .

لقد علم سيسو الحقيقة ، وفتر أمله وتشجيعه ، ولقد جاء ذكر المرض على لسانه سهوا وغفلة ، وتجاهلته كأني لم أسمع ...لقد أخبر أباه موشي وشاع الأمر بين الأقران ...والكل لا يستطيع إخباري ...

رنين ...رنين ...من !!

ساندرا زوجة موشي : شلوم زهير ...كيف الحال !!

زهير : بخير وألف خير

ساندرا : لن أطيل عليك ...هناك جمعية خيرية أمريكية ، سأكون وسيطة لك ، وسيساعدونك في تكاليف علاج فيروز ...المهم ...أنا أعرف رقمك الآن ...سأتصل بك !!!

طوط ...طوط ..طوط..

ذهلت حقّا ، وتيقنت عِلما ، ودارت بيَ الأرض وأظلم كلّ شيء .

يا إلهي ...

لقد أخطات في تقدير عواطفي تجاه حبيبتي فيروز ، فلم تعد لي مطامع ومطامح بعد الآن ، سوى شفاء الحبيب ، انقبض قلبي انقباضا حادّا لسماع الخبر ، أصبحت ساهما ، شارد اللب ، فتلك الذكريات الجميلة على شواطئ الدار البيضاء لتثير أشجاني ، فاللهم غمرة نسيان .

فبين ظلمات هذه الهواجس يشع وميض نور حين الرضا بالقضاء والقدر ، فتلك البائسة الحنون ، المسكينة المعذبة الهزيلة ، التي صارت هامة ، لتركت ذلك الفراغ العريض ، لقد تركت زوجها المسكين يرثي حالها ، فأصبح هو الموئل والعائل الوحيد ، شعرت بضرب من الحيرة على حال أولادي ، وكيف سأدبر أمورهم وحدي ؟

فليمت البؤس إذا ...

ولتمت بموتته الآثام ...

الحاج الفاسي الديوث بعد كل هذا العناء والتعب والشقاء ، والعمل الدؤوب والإخلاص العالي ، قرر أن يبلغ الشرطة أني سارق ، أبلغهم أني سرقت سيفين عربيين أصيلين !!

أنا الرعديد الذي لم تكن له سوالف في السوء أبدا ، حزبني الأمر وارتبكت وخفت من ظلم الحاج وفساد المخزن ، أخذت مفتاحا أولجته في ثقب قفل خزانة لي بشقتي المتواضعة ، أبحث عن أوراق ...

أبحث عن رقم ...

هاتف ثريا زوجة الفاسي ، قد احتفظت به في ورقة بعد أن أمرتني ذات يوم بإرسال مال لإحدى الصديقات عبر وكالة بنكية ، فاحتفظت بتلك الورقة عن طريق الصدفة ، وكان الأمل حليفي هذه المرة ...وجدت الرقم وكان أملي المتبقي للشفاعة والتوسط بيني وبين الحاج .

ورغم ذلك كنت ألعب بورقة خطيرة ، تجنبت استخدامها ولكني اضطررت لذلك ...فسامحني أيها القارئ العزيز ...

مفاجأة لم تكن تخطر على البال ولا في الحسبان ، كنت أعرفها أنا والشيطان .

كتبت الرقم وضغطت زر الإتصال ، وضعت السماعة على أذني أسمع الرنين ، وقلبي يخفق بسرعة ...شهيق ...زفير .

ألو : نعم

زهير : كيف حالك للا ثريا ، أنا زهير ، خادمكم .

ثريا : آاه ، ومن أين لك هذا الرقم ، أتظن أنك ستنجو بفعلتك أيها اللص ، فللحاج معارف ونفوذ لا تخطر لك على البال ، فارتقب يا ابن الكلب.

زهير : حنانيك ... انتظري ... لا تستبقي الأحداث ، (واللي داروا من جاج ميضربش الناس بالحجر) ، أتذكرين كم من الزمن كنت أمينا لك ولزوجك ، أتذكرين ..!!

أجابت بتكبر وغرور : أه ...أتظن أن ذلك سيشفع لك ...ها ها ها ها .

زهير : أتظنين أني لا أعرف نوع علاقتك بعبد الرحمن !!

أتظنين أني لم أعرف قصتكما منذ البداية ، أتحسبينني غبيا ، أتظنين أن اختيارك له في كل أمر وخاصة في أمور البيت أمر لم أفهمه ، انظري لابنك الصغير ، أظن أن به شبها لأبيه أو بالأحرى لعشيقك .

إن كان مكاني السجن ، فوالله لن أبرح مكاني هذا حتى يعلم الغائب قبل الحاضر سر تلك العلاقة ، ولسوف تصبحين طليقة الحاج وفي السجن أنت وذلك الغر ...قسمًا... وقد انتشيت بمعارف الحاج ونفوذه ، ولعل فحص الحمض النووي لا يحتاج ذلك كله ، ولسوف يبلغ الأمر الجميلة ساندرا، وستعلمين من الكذاب الأشر...

بعدما أتممت ، أحسست أنّي كدت أفتق طبلتي مسمعيها ، وهي تستمع بكل خضوع وخنوع ، فقد تخيلت كيف قفّ شعرها ، وكيف استطير فؤادها ، فبخطى رتيبة تبعث عن الأسى على شرفة الشقة ، أردفت قائلا: ماذا الآن !!

أجابت : قابلني قرب النافورة وسط المدينة ، لا تخبر أحدا ، وسآتيك بما يبردك ...غدا على الساعة العاشرة صباحا .

أقفلت المكالمة واستلقيت على كرسي بالشرفة وقد شبكت يدي خلف رأسي ، أراقب تلك النجوم التي صارت مؤنستي بعد رحيل فيروز ...لقد رحلت و تركتني وحيدا .

أتيت إلى المكان المتفق عليه ، وقد سبقتني له ، لم تسلم علي ولم تكلمني ، أعطتني مغلفا وانصرفت بسرعة ، وما إن ذهبت حتى فتحت المغلف فإذا بي أرى مبلغا لا بأس به وورقة تنازل عن الدعوى القضائية .

أنا رجل حر ...أهيم كالمخبول وقد رحلت فيروز .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ
الْبَرَصِ، وَالْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ،
وَمِنْ سَيِّئِ الأَسْقَامِ

أنين وشهقة

كلما مررت بالمكان وفي نفس الوقت والزمان ، تحن مشاعري وجوارحي لها ، كيف ولم يعد لي شيء بعد الآن ، خراب عاطفي ، وهم يثقل كاهلي ، وموت يتربص بي وقد أعلنوا الوباء بداخلي ...لن أنسى يوم دخلت المسجد وقد امتلأ عن آخره بالمصلين ، والكل ينظر إلي ، والبعض يتسارع لتعزيتي ومواساتي ، كنت مغيّبا بشكل تام ، وعلى لساني عبارة واحدة ...

بارك الله فيك أسيدي ....آمين ....آمين ...

كنت متأثرا بداخلي لحدّ كبير ، فلم أعد أستطيع منع طيور الحزن من أن تحلّق فوق رأسي ، إلا أن الظاهر يوحي أن لا شيء قد وقع ، جفّت عيناي من الدمع ، فلم تسمح لي نخوتي وهيبتي بالبكاء ، وإن كانت تلك الدموع مطافئ حزني الشديد ، رؤيتك لي توحي بالصلابة

والصبر ، وما أنا إلا وديع كقط بات في العراء في ليلة باردة ممطرة، فقد ملئ قلبي حزنا فصار صدأ يغشى النفس ، وفقدت نكهة الفرح والسرور ولم أعد أعرف معناهما ...نعم ...فتلك الدموع أسلحة المستسلمين .

أقيمت صلاة الظهر وقد صلّيت في الصفوف الأمامية بعد أن أفسح لي النّاس الطريق ، كانت هناك جنازتان ، واحدة لرجلٍ مسنّ كان يعمل حارسا بإحدى مسابح المدينة ، لم أكن أعرفه لشخصه ، ولكني تعرفت على اثنين من أبنائه ؛ عبد الرحيم وهو الأكبر سنا ، رجل سمين عريض المنكبين منتفخ الأوداج ، بأسنانه المسوسة ولحيته التي امتزجت بالشيب ، يشبه أباه كثيرا للنظرة التي ألقيتها عليه في ثلاجة الأموات ، له ابنتان أكبرهما تبلغ من العمر اثنتي عشر سنة والثانية لا زالت رضيعة ، يعملُ مياوما بإحدى شركات ترصيص الطرقات .

وابنه الثاني توفيق ، لا تمتني به أية صلة ، نحيف الجسم ، كث شعر الرأس ، جاحظ العينين ذو لحية جرباء ، بشفتين رقيقتين وأنف طويل .

مباشرة بعد تسليم الإمام ، صاح المأموم بأعلى صوته ...الصلاة على الجنازة رحمكم الله ....جنازة رجل وامرأة.

تابعت همسات الحاضرين بعينين فزعتين ، لقد كنت صلبا قويّا ، رصينا ، وانهار ذلك كله واتمام المأموم لندائه ، أجهشت بالبكاء فسقطت تلك الدموع الصامتة ، وقد التفت إلي أبناء الحاج محمد يواسونني والكل يشعر بالأسى ، وهمسات من المصلين ...

عظم الله أجركم سيدي ...

لا حول ولا قوة إلا بالله ...

البركة فراسك أسيدي ...

تقدّم الإمام للصلاة على الجنازة ، لم أعد أستطيع الوقوف ، فالوجع لا يحتاجُ طويل الكلام ...أنين وشهقة ، فاكتفيت بالصلاة جالسا .

وداعا يا زوجتي ...يا من واستني في الضيق ...يا من ألهمتني الصبر ...يا من لم تذق طعم الكرى ...يا من أحبّتني حبّ المخلصين ...وداعا ...إلى جنّات عدن ...

بكيت وهل بكاء القلب يجدي

فراق أحبتي وحنين وجدي

فما معنى الحياة إذا افترقنا

وهل يجدي النحيب فلست أدري

فلا التذكار يرحمني فأنسى

ولا الأشواق تتركني لنومي

فراق أحبتي كم هز وجدي

وحتى لقائهم سأظل أبكي ..

وداعا يا أغلى ما عندي

حُملت الجنازتان على الأكتاف وقلبي يردد : كيف للقلب أن ينساكم يا من في الفؤاد سكناكم ...

بدأت تهليلات المشيعين ...لا إله إلا الله محمد رسول الله ، مقسّمة على فوجين ، فوج في الأمام ، وفوج في الخلف ، يرددها الفوج الأول و يسكت الفوج الثاني وهكذا ذواليك ، إلى أن يبقى ما يقارب الثلاثمائة متر تقريبا عن باب المقبرة ، فيتغيّر التهليل لذكر آخر :

جاه النبي قدّمنا ليك ، يا رحيم ترحمنا ...على نفس النسق الأول ، فيتغير الذكر الثاني لثالث واقترابنا من البوابة الرئيسية ، فلم يعد

يفصل بيننا وبينها وقتئذ سوى مترين على الأقل و جمهرة المشيعين في خشوع :

يا مولانا يا رحمن جود علينا بالغفران ، ما في حال ما نريد ونتا عالم باللّي كان ...على نفس النّسق أيضا .

دلفنا لداخل المقبرة وقد صرخ قلبي صرخةً مزقت ضلوعي ، و جنبات المدخل الشرقي للمقبرة قد امتلأ بالمتسولين ذوي الأسمال البالية والأعناق المشرئبّة والعيون الحزينة التي تستميلُ بأصواتها ودعواتها قلوب الوافدين و المشيعين ، يرجع ذلك إلى الظروف القاسية التي تحيط بهم ، وإلى الظلم الإجتماعي الذي يثقل صدورهم، لوحة تصوّر الظلم الإجتماعي في أقسى أشكاله ، تلك الطبقة التي ما برحت موضع احتقار العلية والأشراف ومجال اضطهادهم ونكايتهم .

فللمقبرة ثلاثة أبواب ، فالأول قد دخلنا منه وهو الرئيسي ، والثاني من الخلف وهو باب قديم قد تمّ إغلاقه ، وباب من الناحية الغربية يستعمل من قبل سكان الأحياء المجاورة له.

أطفال صغار ، يتامى وأرامل ، أصناف من طبقات (الحزقة والميزرية) ، يسترزقون من الصدقات التي تمنح لهم من أهالي الموتى وزائري القبور ، ومن العابرين كذلك، يقتاتون من فتاتنا نحن رزقا لهم ، وقد تجلت التعاسة في ملامحهم وثيابهم وأخلاقهم ، إنّه الذل كما لو كان يمشي ويتكلم .

لا أتكلم عن نفسي كمتصدق أو منفق ، إنّي في هذه اللحظة لأحوج منهم أجمعين ، وأحق بذلك كله ، أقسم بالله أني لا أملك سوى مئتي درهم وهي في الأخير أجرة الحفّار ، ولم يبق لي سوى الله ، أستنجد به وأطلبه وأتضرع له ...لعله يستجيب ...

أنا إنسان بائس ...

فبصدر منشرح وهموم انفرجت بها الأسارير ، سمعت مناديا بين القبور يقول :

دع الأيام تفعل ما تشاء

وطب نفسا إذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالي

فما لحوادث الدنيا بقاء

خلعت نعليّ بين القبور ، وأنا أمشي بدأت أستشعر وخز الأشواك والحصى الصغيرة ودغدغة الحشائش الصفراء اليابسة ، أتحسس موضع قدمي بين تلك القبور الهشة ، فجل القبور بهذا الجانب الأيسر قد رشت وقد أحيطت بحائط إسمنتي يعلوه سياجٌ مسنن ، وقطع زجاج قد ثبتت على الحائط من الأعلى بالإسمنت .

التفت إلى أحد القبور القديمة وقد كتب تاريخ وفاة صاحبه على قطعة حديدية سوداء بصباغة زرقاء ، ثلاثة وعشرون وتسعمائة وألف (1923)...إنّه تاريخ قديم جدّا.

وأنا أتمتم بدعاء دخول المقبرة ، أرى جمهرة من الأحبة قد سبقوني إلى القبر ، فبخطى متثاقلة ، وهمة فاترة ، أجرّ رجليّ كمن أعياه المشي ولم يجد بدا من أن يمشي ، وكمن خاف أن يدركه الليل في مكان موحش مقفر ، يبتغي الوصول لمكان آمن .

فمنذ الصباح وأنا في التنقل وابتياع مستلزمات الدفن من بحث عن الكفن و تلك القطع الخشبية التي تزرع في القبر و الأخشاب المعدة خصّيصا لتسقيف القبر على الميت مع كيس بلاستيكيّ سميك ....

كلها مواد قد تكون غريبة عليك لحد ما ، قد اكتفيتَ يوما بمشاهدة عملية الدفن ، وانتابتك تلك الإيمانيات الصادقة والمراجعات النفسية، والقرارات الحتمية التي عزمت ولو بشكل سري في باطنك

على اتخاذها ، تحسّن كأن الفرص قد تضاعفت لديك لتدارك الموقف، تُدرك يقينا أن لا شيء يستحقّ أن يُهتمّ به في هذه الدنيا ، لا تذكر شيئا حينئذ سوى أنك ستكون يوما ما هناك ، داخل تلك الحفرة العميقة ، المظلمة والموحشة ، لن يرعاك أحد ولن يساندك لا حبيب ولا صديق ، تذكر أنك ستمضي لياليك وحيدا ، بعيدا كل البُعد عن أي كان من الصحب والأهل ...هكذا يُحسُّ المتفرّج دائما، والعكس بالنسبة لي ...فقد أرهقني التعب ولم أعد أرى سوى تلك الفواتير التي ستُختم بها هاته المراسم ، وكيف سأدفعها ، ومن أين سأجلب هذا المال ...إنّ تفاوت المواقع واختلافها ليُبنى عليه الكثير، ولتهدم به الكثير من الرؤى...فاستمتع بتلك المشاهدة ، وافرح بحضورك وعش مع ضميرك ولو ساعة بين تلك الساعات اللاهية .

التفت إلي نجار الحي وقد رأى بؤسي وما آلت إليه حالتي ، وأنا أنتعل نعلين رخيصين ، وساعة قديمة ، كما أن شعري غير مرتب، ووجهي شاحبٌ ممتقع ، وقد هزلت من شدة الهم والغمّ ، لست بحال

جيّدة أبدا ، فقط أتألم ولكن بهدوء قاتل ، قال ببرودة وحلم : هاك الشاهدين ورحم الله الفقيدة .

أجبت في يأس وبؤس وفتور : كم !!

أجاب وهو يبتسم ابتسامة خجولة قد مزجت بالأسى : لا شيء ، في سبيل الله .

قلت له بصوت جهوري نطقت فيه نخوتي : ستأخذ أجرك ولا تناقشني .

أجاب من داخل محله المظلم وقد انشغل بإعداد الشاي : أتحسدني على فعل الخير أسي زهير ... ادفع في المرة المقبلة ، أما اليوم فهو لك ...أعانك الله صديقي العزيز .

أحسست بتلك المذلة الملوّنة بالكرم ، أحسست بمهانة لذيذة و انكسار داخلي ، نعم ...أنا ذاك الشخص الذي لم يحلم قط في أقبح

كوابيسه أن يكون محلّ عطف لدى الناس ، وصنفا ممن تجب الصدقة فيهم .

أتضور جوعا ....أتصبب عرقا ...أزدرد ذلك الريق المر ...لم أعد أخشى الفقر بعد الآن ...فقد أحسست بطعمه ...ليس كريها إلى تلك الدرجة كما كنّا نظن ...لقد ابتلعته بسرعة ولم تسنح لي الفرصة لتذوقه ، وقد استقر بجوفي الآن... يعلّمني معنى الألم ...ويذيقني بأسه الشديد .

أجبت صديقي النجار شاكرا : الله يرحم ليك الوالدين ...الله يسهل عليك .

مواقف مؤثرة طبعا ، فقير محتاج راعى لفقير مثله ، وأحس به ، وقدر ظروفه ، هي أخلاق الفقراء تطوى بين الأزقة ومتاهات الزمان.

تلقيت اتصالا وأنا راكب على دراجتي الهوائية متجها لشراء قطع الأخشاب عند الحاج عبد السلام بالقرب من المقبرة ، وقد كان في الإتصال ابن عمي ربيع ، يعزيني بكل أسى وتأثر ، ولا أظن أنه مكترث أبدا ، مجاملة مصطنعة ، فكيف يأسى على من لم تقبله زوجا وفضلتني عليه ، لقد أكرهته الأعراف والتقاليد ، فكم من واحد يرى المواساة كذلك ...

حشومة منرحموش ليه !!

أبلغني أنه أحضر الكفن والكافور ...فلا داعي لشرائه ، استحسنت ذلك ، فما يدريك لعل الخبر وقع على القلب فليّنه.

فكم مرة لاقى مني اللسان السليط ، والقول الهاجر ، كم مرة سببته سبابا جارحاً ، وكم سمع الجيران صياحي الخانق .

لقد كنت معه شرس الطباع ، قاسيا لا أرحمه أبدا ، كان لئيما حاقدا حاسدا ، وأزيدكم ...بخيلا مختالا شحّيحا ...هكذا أقبّحه بحضرة زوجتي .

استقبلني الحاج عبد السلام بسحنته المليئة بالدهن بتحية صباحية متمثلة في كوب شاي منعنع .

قال لي : قد يكون إكرام الحبيب دفنه في بعض الأحيان .

نادى على مياوم لديه : علال ...فينك أعلال ...

اختر ستة عشر (16) قطعة خشبية للسي زهير ...أسرع ...

وقفت فاغرا فمي لسلوك الحاج عبد السلام ، وكيف عاملني بجفاء ، يااه...لا أحد يحس بآلامك وأوجاعك ، فلمن أشكو كآبتي إذن...؟

ترددت في الرد عليه ، فاكتفيت بالسكوت ، أدخلت يدي في جيبي وسألته ، كم :

نظر إليّ باستعطاف نظرة يمرر فيها شريط حياتي البائس يقول :

أحقّا تريد أن تدفع !!

أجبت بتعجب : حكّرتيني ألا ..!!

قال لا : حاشا أن أحتقر جاري العزيز وابن صديقي الوفي، ولكن لن تدفع ...هذه صدقة مني لك وأحتسبها لأبيك إن شاء الله ...

اشتد ذهولي ، وارتعدت أطرافي بعصبية ، لم أفهم فيها شيئا وهذه النقلة السريعة الغريبة ، من استهتار إلى جود وإحسان ووفاء .

فلنتمم إذا ...

قريبا من تلك الجمهرة الشعبوية ، وصلعة السي عبد الصادق التي تلمع من بعيد وهو يحمل قربة ماء وقد ملأها من مطفية وسط

المقبرة ، والحاج مصطفي يوزع أكواب الماء على الناس ، يسقي العطشى منهم .

أرى ثلاثة من المرتزقة يتجارون بين القبور ، بل وإن أحدهم ليسوق دراجته الهوائية بكل سرور بين الأموات ، تراهم أشباه الكلاب البرية وهم يصيحون بترانيم على ما يبدو وصيحات كأنهم الهنود الحمر .

بأقمصة متسخة بالوحل ، وبقع من الزيت قد اختلطت بالتراب ، وبعض بقع المرق على صدورهم وعلى جنبات أكمامهم ، يجلسون بقرب الحفار على مقربة من صندوق نقل الأموات ، فيبدؤون بقراءة القرءان بطريقة لو أقسمت على أن ما يقرؤون ليس قرءانا ما حنتث.

مرتزقة أنذال ...

الحفار مدمن الكيف ، بوجهه المجعد الذي يبرق كبريق قشرة سمك السردين ، وبلحيته البيضاء المصبوغة الأطراف بالحناء ، وبسرواله القندريسي الأبيض ، وعضلات ساعديه القويتين ، وقس ذلك على عضلات ساقيه ، خمسينيّ تفوح منه رائحة الدخان ، فبعد أن انتشى جاء ليدفن زوجتي الحبيبة ، وقد أمتع مسامعه بموسيقى الغيوان ، وجيل جيلالة ، بغرفته الملاصقة لباب المقبرة الرئيس ...ما نا وحداني ...ما نا برّاني ... أنا مواطن والصمت عليّ...ينشد وينادي ..

حان موعد الدفن ، وكان من العادات المحكمات أن تُلفّع المرأة في غطاء سميك بعد تكفينها ...غطاء لا يصف جسدها وتفاصيله ...وقد حضر بمعية أب فيروز أربعة من أبنائه ، وقد بلغ تأثرهم مبلغا .

أخذوا بأطراف الغطاء من نواحيه الأربعة ورفعوه فوق الصندوق كمظلة ، كي لا تظهر الجنازة للعيان ، وكان السي عبد الرحيم بجوارنا على كرسي متحرك يصيح ويعوي ويشهق ويولول ...

مشيتي أخليتيني أبنيتي ....بنت الصغيرة ...

لقد سبب لي إحراجا لا مثيل له ...تبا لكم ولرجولتكم .

حملتها من جهة الرأس وخالها من جهة الرجلين وعمها من الوسط، أما أنا فقد أمسكت بطرف الكفن والخال كذلك ، أما العم فقد رفعها بواسطة سماط سوداء متينة ، والإخوة الأربعة قد غطونا من الأعلى إلى أنزلناها لسكناها الجديدة.

أنزلناها على مهل والكل يذكر الله ويستغفر ، وجرت العادة كذلك أن تفتح تلك العقد التي على الكفن من جهة الوجه والخصر ، فغفلنا عن ذلك لهول الفاجعة ، فنزل الحفار مرتجلا القيام بالفعل ، فانتفض عليه الحاج عبد السلام بكل غيرة وحرقة حتى كاد أن يضربه، فأشار إلي بأن أفتحها بنفسي ...ففعلت .

والسي عبد السلام بوجه مكفهر غاضب متسخط :

تفو ...مكتحشمش ...حشوما ....واااه .

رتبت الأخشاب الستة عشر ، وغلفت بالبلاستيك وبدأت عملية التسقيف الأخيرة ...والكل في أوج خشوعه وخضوعه .

أخرجت ورقة من فئة مئتي درهم ، أعطيتها الحفار ، وانصرف وهو راض ولسان حاله يقول :

كثر الله موتى المسلمين ، ولا أطال الله في أعمارهم ؛ الكل يسلم عليّ ، ويدعوا لي ويواسيني ، وعقلي قد طار به همّ الأولاد الثلاثة.

خاتمة

هي حياة المساكين

أهل الفاقة المجانين

هي حياة الضّعف والمذلة

نحن الدراويش

تحت أحذية السلطة والأقدار

هي جيوب المساكين الفارغة

والأفواه الفاغرة

هي الحياة المرة لبني الفقراء أهل العجز والمتربة

ضحايا السرطان

نصف معشار

أنقذونا ...أنقذوها ...أنقذوني ...

لمن الملك اليوم ..

لله الواحد القهّار .

انتهى بفضل الله وكرمه

في تارودانت بتاريخ : الأربعاء 11 جمادى الثانية 1441/ الموافق ل 5 فبراير 2020.

الفهرس

إهداء 4

مقدمة 5

أجير مستعبد..... 10

أنين وشهقة 30

خاتمة 48